مجلة مقامات – 20جويلية (2022م)
EISSN: 2253-0363 / ISSN: 2543-3857
المجلد 06/ العدد: 01/ ص: 177- 190

النص والخطاب بين الرؤية التراثية وتحليل الخطاب المعاصر

Text and discourse between traditional vision and contemporary discourse analysis

د. مختار حسيني
Dr. Mokhtar Hoceini
مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط – الجزائر
Research Center in Islamic Sciences and Civilization in Laghouat – Algeria
hoceinim22@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022-02-26 تاريخ القبول: 2022-03-18

ملخص:
لا شك أن النص والخطاب المعاصرين يختلفان عن مفهوميهما في تراثنا العربي، ليس من جهة التباين ولكن من جهة الخصوصية والتميز، وذلك باعتبار اختلاف المكونات الزمانية والمكانية ومجال الاهتمام، لذلك تطرح إشكالية حدود المقارنة والاستصحاب بإلحاح، فهل يمكن القول إن استعمال العلماء العرب لمصطلحي "النص" و"الخطاب" يستدل به على استعمالهما اليوم؟ أم إنه بالإمكان الوقوف على نقاط التقاطع والاختلاف، وعلى ما يميز المفاهيم من تفرد فرضته طبيعة كل منظومة فكرية واستقلاليتها؟
يسعى بحثنا للإجابة عن هذه الإشكالات في ظل مفهوم التراث والعصرنة الذي لا يستغرق قطعا نصوص الوحي، ولكنه لا ينفصل عنها، باعتبار أن المفاهيم التراثية عند العرب نشأت خدمة للقرآن الكريم، ومن ثم فإن النص والخطاب وغيرهما من المصطلحات لا تنفصل في التراث عن القرآن الكريم، وقد اعتمدنا في معالجة الإشكالية السابقة المنهج الوصفي والترتيبات الإجرائية الخطابية المعاصرة وأهمها التداولية ولسانيات التلفظ، وحاولنا المزاوجة بين ما هو نظري وما هو إجرائي، بغاية الإحاطة والإفادة.
كلمات مفتاحية: نص، خطاب، تراث، تداولية.

Abstract:
There is no doubt that the contemporary text and discourse differ from their concepts in our Arab heritage, not in terms of difference but in terms of specificity, given the context, therefore, the problem of comparison present itself. Do the "Text" and "Discourse" refer to the same usage today? Or are there points of agreement and disagreement, and that there is a distinction of concepts?

There is no doubt that the contemporary text and discourse differ from their concepts in our Arab heritage, not in terms of difference but in terms of specificity and distinction, therefore, the problem of comparison presents itself urgently. Do the "Text" and "Discourse" refer to the same usage today? Or are there points of agreement and disagreement, and that there is a distinction of concepts, imposed by the independence of each intellectual system?
Keywords: Text; Discourse; Heritage; Pragmatics.

1. مقدمة:

إن تناول مفهومي النص والخطاب في التراث ومقارنتهما بمفهومهما المعاصر لا يعني مطلقا أننا نبحث عن التطابق المطلق بين المفاهيم بقدر ما نعرض للمصطلحات الحديثة من جهة أصالتها في الممارسة التراثية، وأنها في ذات التوجه النظري والإجرائي الحديث. مما يكسب التنقيب عنها وجاهة وجدية، فاستقلالية التراث العربي وتكامله في إطار منظومة فكرية واحدة هو خاصية جوهرية تميزه، لكنها لا تنفي عنه الانضواء تحت العنوان العام المتمثل في الفكر اللغوي البشري على إطلاقه، مع الاحتفاظ بالخصوصية والتميز.

إن عملية البحث تستوجب منا عدم الخلط بين السياقات التكزينية وإن تشابهت النصوص، ولذلك نؤكد على ضرورة الابتعاد عن قراءتين متطرفتين: قراءة تستصحب التراث إلى عصرنا فتكون نتائجها إحدى نتيجتين إما القول بأن التراث قد سبق إلى النظريات المعاصرة، وأن دور الباحث فيه يقتصر على التنقيب والإسقاط. والنتيجة الثانية نتيجة معاكسة تحكم على التراث بالنقص وتتهمه بالقصور، وقراءة ثانية تستصحب النظريات المعاصرة إلى التراث وتحاكمها بسياقه التكويني، فتقبلها إن تحقق لها الإسقاط أو ترفضها، وفي كلتا القراءتين مجانبة للصواب؛ ذلك أن فيهما خلطا بين سياقات تكوينية مختلفة، وإدراجا للنصوص في سياقات نصوص أخرى، فتحاكم التراث بما استقر في النظريات المعاصرة، أو تحاكم هذه الأخيرة بما استقر في التراث دون اعتبار لاستقلال سياق كل منهما عن سياق تكوين الآخر وإنتاجه. ونحن نحاول أن نجعل قراءتنا قراءة وسطا، تقبل على قراءة التراث باستصحاب نظريات العصر، لكن دون إسقاط أو إهدار لاستقلالية التراث وارتباط نصوصه بسياقها الخاص وظروف إنتاجها المستقلة عن سياق نصوص العصر، فنبقي بذلك على خصوصية التراث ونقف على القيم التي تجعل من هذا التراث غير منفصل عن المعاصرة.

2. مفهوم النص بين القديم والحديث:

في إطار ثنائية الخصوصية والتماهي التي أثرناها سابقا يمكننا القول بداية إن النص بمفهومه المعاصر يختلف عن اصطلاح القدماء، وإن استعمال القدماء لمصطلح "النص" لا يستدل به على ما أصبح مستعملا له هذا المصطلح اليوم(1) ذلك أن النحويين والبلاغيين أطلقوا لفظ "النص" على ضرب من الكلام، فاللفظ المحكم نص والمتشابه ليس نصا، دون أن يعني ذلك غياب المفهوم لغياب المصطلح، بل إنه محض غياب اصطلاح نجد مفهومه حاضرا تحت مظله مصطلحات أخرى قائمة بنوا عليها نظريتهم كمفهوم الكلام والخطاب والقول(2)

تعددت تعريفات النص قديما وحديثا، وتباينت الآراء حول ماهيته وحدوده وأشكاله ومتعلقاته، خاصة في ظل ثنائية التراث والحداثة المطروحة بإلحاح؛ سواء على مستوى المفهوم ذاته أو على مستوى طبيعة بحثنا، ولذلك ارتأينا ربط المفاهيم الحديثة للنص بمفاهيمه في التراث العربي الإسلامي.

إن أهم ما نلحُّ عليه هنا هو أننا لا نعني بالتراث أبدا نصوص الوحي من قرآن وسنة، ذلك أن التراث يعني التاريخية، ويقتضي الصفة البشرية، وهو ما تتنزه عنه نصوص الوحي، وأن غاية ما نقصده بالتراث هو ما كان من صنع العلماء، لأنه لا يخرج عن إطار الجهد البشري وإن تعلق بالقرآن الكريم أو السنة المطهرة، فنصوص الوحي وحدها هي التي تتصف بالقدسية، وتستعلي بمصدرها الإلهي عن محددات الزمان والمكان.

نشأت البحوث اللغوية عند العرب أساسا لخدمة كتاب الله، وكان القرآن الكريم أهم باعث عليها، ولذلك نجد مفهوم النص في التراث مرتبطا في عمومه بالقرآن الكريم، وربما كان كتاب الله في شكله النصي من أهم الأسباب التي دفعت العلماء العرب إلى الاهتمام بهذا المفهوم، حتى غدت النصية سمة بارزة في تراثهم.

ومثلما هي هيمنة مجال البحث على التعريف، وتوجيهه له حديثا فإن الأمر ذاته نجده قديما، حيث يأخذ التعريف المنحى الذي يحدده مجال البحث، ولذلك تعددت تعريفات النص في التراث بتعدد الاهتمامات؛ ففي مجال أصول الفقه نجد الأصوليين يستعملون مصطلح النص والخطاب الشرعي والنص الشرعي أو نصوص التشريع، وكلها "عبارة عن خطاب الشرع إذا تعلق بأفعال المكلفين"(3) ونجد الإمام الشافعي يكني عن النص بقوله: "بيّن في الآية، مستغنى فيه بالتنزيل عن التفسير"(4) وبغض النظر عن المراد بالتعريف ودلالة ألفاظه فإنه من الواضح أن المقصود هو نصوص الوحي دون سواها. يقول ابن حزم: "هو اللفظ الوارد في القرآن أو السنة، المستدل به على حكم الأشياء، وهو الظاهر نفسه، وقد يسمى كل كلام يورد كما قاله المتكلم به نصا"(5) ويقول

الجويني: "النص ما لا يتطرق إلى فحواه إمكان التأويل، وينقسم إلى ما ثبت أصله قطعا، كنص الكتاب والخبر المستفيض، وإلى ما لم يثبت أصله قطعا، كالذي ينقله الآحاد ولا مجال [لتأويل] في النوعين"(6)

ويقسم الأصوليون النصوص إلى قسمين هما: نصوص الوحي، والنصوص الدينية البشرية. ويورد غيرهم لفظ النص بمعنى المحكم غير المتشابه أو المحتمل للتأويل، مثل قول الثعالبي: "نصَّ في إتمام الخطاب على آدم وأغفل حواء"(7) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[طه: 117]. ومن ثمّ فإن العلماء العرب القدماء لم يستعملوا مصطلح النص بمفهومه الحديث، وإنما كان استعمالا دالا على الحدث لا على الاسمية، والقرينة في ذلك أنهم لم يستعملوا جمع النص أي "نصوص" الدال على تمحض المصدر للاسمية(8)

3. مفهوم الخطاب:

ارتبط قديما مصطلح "الخطاب" بالفلسفة اليونانية، وبأفلطون على وجه التحديد، الذي خاض "أول محاولة لضبط المقال وعقلنته وبناء منطقه على قواعد تستمد من داخل المقال نفسه، أكثر مما تستمد من أصل خرافي أو وضعي يفرض بداهته على المقال"([9]). ثم تناوله أرسطو في الخطابة والبلاغة، بوصفه وحدة منسجمة من الأفكار تؤدي إلى نتيجة محددة، ليرتبط في عصر النهضة بالفلسفة الكلاسيكية، بفضل جهود ديكارت الذي اتخذه عنوانا لكتابه "خِطابٌ في المنهج"، ثم واصل مصطلح الخطاب رحلته في أحضان البلاغة إلى أن استقل بذاته موضوعا للدراسة، مع البحوث اللسانية الحديثة.

انطلق المفهوم الحديث للخطاب([10]) من ثنائية: اللغة والكلام عند دوسوسير، من خلال اشتغال شارل بالي - تلميذ دوسوسير - على دراسة الجانب الاستعمالي للغة([11]) وما تلاها من جهود زليغ هاريس، الذي أسس لمفهوم النص في مقابل الجملة، ثم تلونت تعريفات الخطاب بألوان حقل الدراسة التي تتناوله؛ فالخطاب من منظور اللغة هو "اللغة أثناء استعمالها، إنه اللغة المسندة إلى الذات المتكلمة"([12]) أو هو "مجال للإبداع، تتكون فيه سياقات تعطي قيما جديدة للغة"([13]) ومن منظور نحو الجملة يعتبر الخطاب: "وحدة مساوية أو أكبر من الجملة، يتكون من تتابع في شكل رسالة لها بداية ونهاية"([14]) أما من منظور لسانيات التلفظ فإن الخطاب "هو كل ملفوظ يفترض متكلما ومستمعا تكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بطريقة ما"([15]) ومن منظور الدراسات النصية: يعد الخطاب نصا منظورا إليه في سياق إنتاجه. ومن أهم معاييره: السياق والفعل والتفاعل والتوجيه وغيرها([16]) واستقل الخطاب بمفهومه الفلسفي الحديث مع "ميشال فوكو" M.Foucault([17]) حيث لم يعد مجرد "طريقة للتعبير، أو حديثا متساوقا، أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة[...] وإنما أصبح إمكانا وشرط وجود ونظاما، أصبح حقلا تتمفصل فيه الذوات، ومجموعة علاقات تجد فيها مرتكزا له"([18])

4. تحليل الخطاب:

واكب الاهتمام بتحليل الخطاب بمفهومه الحديث حركية الاهتمام بمفهوم الخطاب في الدراسات اللسانية، وأدارت النظريات النقدية بفعل ذلك التأثير ظهرها للمناهج السياقية السابقة، واعتبرتها مناهج تستقطب النص لمجالها، فتدرس التاريخ أو علم النفس أو الاجتماع من خلال الأدب، ولا تدرس الأدب لذاته. وكانت بوادر التحول مع أعمال الشكلانيين الروس الذين كرسوا المنهج النقدي البنيوي، ومن أبرز منظريهم: "فلادمير بروب" و"جاكبسون" و"ميخائيل باختين" و"إيخنباوم" و"شكلوفسكي". وظهر في أمريكا ما يسمى بالنقد الجديد خاصة من خلال أعمال "أ.رتشاردز" وكتابه "معنى المعنى" سنة 1922([19]) وأدلت الأسلوبية بدلوها في ترسيخ هذا الاتجاه، من خلال الاهتمام بأدبية الأدب، أو ما أسماه جاكبسون بالشعرية، ثم ظهر في الساحة النقدية اتجاهان في الدراسات الأدبية، اتجاه يقدم الشكل على المضمون، ويهتم ببنية النص وما يسودها من علاقات داخلية، ومن أبرز رواده: "رولان بارت" و"جيرار جينيت" و"تودوروف". واتجاه يعنى بالمضمون والشكل معا، ومن أبرز رواده "غريماس" و"كلود بريمون".

وبعد طول هيمنة واستقرار لهذا النموذج اللغوي وصنوِه النقدي، عادت اللغة إلى الاقتران بالفلسفة من جديد، وظهرت "التَّدَاوُلِيَّة" داعية إلى الخُروج عن قيُود النّظام اللغوي، وإلى دراسة اللغة ضمن التّداوُل والاستعمال، في شكل عودة إلى السياق من جديد، خاصة مع أعمال أوستين وتلميذه سيرل في سبعينيات القرن الماضي، ثم غرايس وليتش وغيرهما. وأسفر هذا التطور في المسار اللساني عن تطور مماثل في النظرية النقدية وفي حقل التأويل الأدبي، وصحبتها حركة موازية على مستوى الدراسات النقدية، على اعتبار "أن أية مقاربة للقدرة الخطابية ينبغي أن تؤطرها نظرية لسانية واحدة، تغذيها وتحكمها، ضبطا وتقويما ومفاضلة"([20]) مما دفع إلى ظهور حقل جديد، يعد مجالا لتداخل التخصصات، هو حقل "تحليل الخطاب".

ونظرا لتداخل للتخصصات المختلفة في هذا الحقل، فإنه ترتب عن ذلك تشكل توجهات عصرية في تحليل الخطاب بكل أنواعه، أهمّها: المقاربة التلفظية، والمقاربة التبليغية، ومقاربة تحليل المحادثات، وإثنوغرافيا التواصل، وإثنوميثودولوجيا المحادثات اليومية، والمقاربة السوسيولغوية، والمقاربة التباينة، والمقاربة التفاعلية بفرنسا وسويسرا، والمقاربة التناصية، والمقاربة الفرنسية في تحليل الخطاب، والمقاربة التداولية، والمقاربة السيميائية، ومقاربة الأعراف الاجتماعية، وغيرها([21])

يُولي تحليل الخطاب اهتماما كبيرا للمكوّن الاستعمالي في النصوص، ويعمل على معالجة معاني الملفوظات في سياقاتها، ويعتبرها خطابات أنتجت داخل تشكيلية خطابية ما؛ أي إخفاء ما بين الخطاب في داخل الخطاب (Dissimulation de l'interdiscours dans l'intradiscours) وفي مستوى أعلى يسعى إلى التركيز على علاقة الخطاب بغيره من الخطابات الأخرى، فيما يسمى "تداخل الخطابات" L'interdiscours، مما يجعل قضيته هي "إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي"([22]) يقول "صامويل باتلر": "يجب أن ندرس كل شيء في ذاته قدر الإمكان، وأن ندرسه كذلك من حيث علاقاته، فإذا حاولنا النظر إليه في ذاته مطلقا، وبقطع النظر عن علاقاته، فإننا سنجد أنفسنا شيئا فشيئا قد استنفدناه فهما ودراسة، وإذا حاولنا النظر إليه من خلال علاقاته فقط، فسنكتشف أنه لا توجد زاوية في هذا الكون إلا وقد احتل مكانه منها"([23])

5. النص والخطاب من منظور تحليل الخطاب:

الفرق بين النص والخطاب من منظور تحليل الخطاب ليس اعتبار النص ما يقابل الشفوي ويطابق المكتوب، وإنما الفرق بينه وبين الخطاب هو السياق، "فالخطاب سياقي contextualisé"(24) أي النظر إليه على أنه نص في سياق. والسياق لا يقتصر على مقام الإنتاج، بل يتعلق أيضا بمقام التلقي، وأن دراسة الخطابات تهتم بالمتلفظ كما تهتم بالمتلقي، فهي ترفض الاقتصار على أحد الجانبين في التحليل، وتسعى إلى تحليل الخطاب في ظل العلاقة القائمة بينهما(25) وأن أساس تلك العلاقة هو التفاعل الخطابي الذي هو "سلسلة من الأحداث يكون فيها عِدَّة أشخاص هم المعنيين بوصفهم فاعلين"(26) ومن هذه الزاوية – أي الكتابة والنطق- يعتبر القدماء النص القرآني خطابا في مثل قول بعضهم في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(34)﴾[البقرة: 33-34]: "وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم، وهذا هو الباب كله في أوامر الله سبحانه ونواهيه ومخاطباته"(27)

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[الأنعام: 121] يقول الماتريدي: "ولا خلاف في أن من نسي أن يسمي اللَّه على ذبيحة - فليس بفاسق؛ وإنما يفسق من تركها عامدًا؛ فدل أن الخطاب بالآية رجع إلى الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمدًا"([28]) ويقول الثعالبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الزمر: 13]: "من المعلوم أنه عليه السلام معصومٌ من العِصْيَانِ،

وإنما الخطابُ بالآيةِ لِأُمَّتِهِ يَعُمُّهُمْ حكمُهُ، ويحفُّهم وعيدُهُ"([29]) وفي ذلك تصريح بالتصور الخطابي للقرآن الكريم، وفيه أيضا إعطاء لبعد آخر في الخطاب القرآن يناسب قدسيته وإعجازه، من خلال توسيع البعد السياقي من التقييد (مخاطبة شخص النبي صلى الله عليه وسلم) إلى المرونة (مخاطبة المسلمين). ويقول المغامسي: "إن قول الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:21] مخاطب بها المؤمنون، وأياً كان الأمر فإن الآية تحتمل الاثنين، فيكون الخطاب بالآية للمنافقين من باب التوبيخ، وللمؤمنين من باب الحث والثبات على ما هم فيه، أو على ما هم عليه"([30]) وفي ذلك أيضا دليل على أن القرآن الكريم في تصور القدماء العرب خطاب، حتى وهو في صورة المكتوب وفي عصر غير عصر نزوله، وهو يتجاوز حدود المخاطبة المباشرة إلى مخاطبة متلقين لا يشترط حضورهم الفعلي آناء التنزيل (أي المخاطب الكوني).

والخطاب عند العلماء العرب الأوائل خطاب باللفظ وخطاب بالمعنى، أما خطاب اللفظ فهو ما كان موجها لمخاطب بألفاظ المخاطبة، وأما خطاب المعنى فباعتبار من يوجّه إليه المتكلم خطابه، وقد يتفق أن يكون الخطاب باللفظ والمعنى معا، أو لا يتفق، فيكون بالمعنى فقط. يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾[هود: 109]: "لفظ الخطاب للنبي ﷺ والمعنى له ولأمته، ولم يقع لأحد شك فيقع عنه نهي، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إخراجه في هذه العبارة"(31) ويقول ابن المظفّر: "لو قلنا: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أبو بكر، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر، لا يصح لأنهما شخصان يستحيل أن يكونا شخصاً واحداً، لأنه يستحيل أن يكون زيدٌ عمراً فيصير التقدير: أبو بكر عمر. وهو محال؛ ولأن وصف الواحد بصفة الجمع خلاف الأصل، وإن كان جائزاً، ولأن مفهوم الخطاب تمثيل النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه في قلتهم وضعفهم ابتداءً، وكثرتهم وقوتهم انتهاءً [...] يَبْدو قليلاً قليلاً، ثم ينمو ويكثر ويقوى، والكثرة والقوة لا تحصل بالواحد ولا بالعشرة؛ وإنما تحصل بالجمع الكثير والجم الغفير، كما كان الصحابة عشرين ألفاً. فحَمْلُهُ على عامة الصحابة أولى لفظاً ومعنى، وهو أقرب إلى الإنصاف، وترك التعصب والاعتساف. ولا فيه من إعطاء كل واحدٍ من الصحابة حظه من هذه الفضيلة دون الحرمان. فإن كلهم كانوا أعلام الإسلام، وإيمان الإيمان رضي الله عنهم أجمعين"(32)

وللعلماء العرب تفصيلات كثيرة داخل خطابية، تتعلق بطرق الدلالة مثلما هو عند الأصوليين، كدليل الخطاب وفحوى الخطاب ولحن الخطاب. ولعلَّ إضافة هذه المصطلحات إلى الخطاب دون النص عند الأصوليين، في الوقت الذي يتم فيه التعامل مع نص مكتوب، يعد دليلا آخر على اعتبارهم النص القرآني خطابا، وعلى محورية الخطاب في دراساتهم وتصنيفاتهم، إضافة إلى

القواعد اللغوية عندهم مثل "مفهوم الخطاب": وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[الإسراء: 23]، و"فحوى الخطاب": وهو أن يكون في الكلام شيء مقدر لا يستغني المعنى عنه، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[البقرة: 184]، واختلافهم في إلزامية دليل الخطاب، وغير ذلك من المسائل الخطابية المهمة في هذا الباب.

ومن المسائل الجديرة بالتنبيه تأكيدهم على مسألة مهمة تتعلق بمفهوم الخطاب القرآني، هي المؤشرات، بما تحمله من قيمة خطابية تتعلق بالتصور الخطابي للنص، والمؤشرات أو العناصر الإشارية Les déictiques - عند التداوليين - وحدات لغوية داخل الملفوظ يرتبط عبرها الملفوظ بمقامه التلفظي، ويبني النص من خلالها مقام تلفظه الخاص، منها الروابط الشخصية المتصلة والمنفصلة ،وأسماء الإشارة، والروابط الزمانية والروابط المكانية...(33) وقد تناول العلماء العرب هذه العناصر الإشارية في النص من جهة أن معنى أي ملفوظ لا يكون قابلا للقبض في غياب الإحالة إلى مقام التلفظ، وهو ما يدفع المتلقي إلى أن يعيد بناء ذلك المقام، انطلاقا مما توفره لغة النص وصولا إلى قصدية المتكلم. وهي قضية جوهرية في أبعاد الخطاب بمفهومه الحديث. ومن صور ذلك الاهتمام قول الطبري في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة: 11]: "اختلف أهلُ التأويل في تأويل هذه الآية، فروُي عن سَلْمان الفارسيّ أنه كان يقول: لم يجئ هؤلاء بعدُ[...] وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) ، هم المنافقون"(34) وفي: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً، مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[آل عمران: 113] يقول الزجاج: "(لَيْسُوا سَوَاءً) وهذا وقف التمام. أي ليس الذين ذكرنا من أهل الكتاب سواءً.قال أبو عبيدة: (ليسوا سواء) جمع ليس، وهو متقدم كما قال القائل: أكلوني البراغيث وكما قال: عموا وصَمُّوا كثير منهم. وهذا ليس كما قال لأن ذكر أهل الكتاب قد جرى، فأخبر اللَّه أنهم غير متساوين فقال (ليسوا سواءً). ثم أنبأ بافتراقهم فقال: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ). قال أهل اللغة معنى قائمة مستقيمة، ولم يبينوا حقيقة هذا وذكر الأخفش المعنى أمة قائمة، أي ذو أمةٍ قائمة والأمة الطريقة من أممت الشيءِ إذا قصدته. فالمعنى واللَّه أعلم: من أهل الكتاب أمَّة قائمة، أي ذوو طريقة قائمة. قال النابغة الذبياني:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة***وهل يأتمن ذو أمة وهو طائع

أي هل يأتمن ذو طريقة من طرائق الدين وهو طائع. فإنما المعنى إنَّه لا يستوي الذين قتلوا الأنبياءَ بغير حق والذين يتلون آيات اللَّه آناءَ الليل وهم ذوو طريقة مستقيمة"([35])

ومن المؤشرات الزمانية ﴿يأتينكم﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي، فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأعراف: 35] يقول البغوي: "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ: مُدَّةٌ وَأَكْلٌ وَشُرْبٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ وَالْحسن: يَعْنِي وَقْتًا لِنُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ، وَانْقَطَعَ أَكْلُهُمْ، لَا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ، وَذَلِكَ حِينَ سَأَلُوا الْعَذَابَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ"(36) ذلك أن الخطاب هو عملية بناء لفضاء زماني ومكاني، وفي الوقت ذاته هو توجيه وتحديد لشبكة من القيم المرجعية، أو هو نظام معلمي Système de repérage يحدد أطراف الخطاب وزمانه ومكانه، ويهتدي المحلل من خلاله أيضا إلى رسم العلاقة بين المتكلم والمخاطب وتحديد نوعها وتفسير طبيعتها، أو تعليل موقفه منه بالنظر إلى الخطاب ذاته، مثلما نجده في قول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: "هذه الآية تتضمن عندي معاتبة من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ، والمعنى ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل، الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان، ولهم هو الإخبار ولذلك استمر الخطاب بـ ﴿تريدون﴾ والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، وجاء ذكر النبي ﷺ في الآية مشيرا إلى النبي ﷺ في العتب حين لم ينه عن ذلك حين رآه من العريش، وأنكره سعد بن معاذ ولكنه ﷺ شغله بغت الأمر وظهور النصر فترك النهي عن الاستبقاء، ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت هذه الآية"(37)

6. الخطاب القرآني بين التصور القديم والحديث:

يمثل الخطاب القرآني في المنظومة الفكرية التراثية جميع عناصر الخطاب التي أقرها الدرس الخطابي المعاصر، فالله تعالى أنزل كتابه على نبيه محمد ﷺ لينذر به الناس جميعا (المخاطَب)، وأنزله منجما بحسب ظروف التنزيل (سياق الورود)، وجعله معجزة خالدة محفوظة في صدور الرجال، وبين دفتي المصحف من جيل إلى جيل (النص)، تخاطب الإنسان في أي ظرف كان (سياق التلقي)، غير أنه خطاب خاص، خصوصيته كامنة في قدسيته، وفي اختراقه المعجز لحدود الزمان والمكان، فهو خطاب متجه إلى المستقبل، يتسع لكل المخاطبين على طول الزمان وعرض المكان، متعال على التشبيه، ليس كمثله خطاب، لأنه من الله الخالق إلى الإنسان المخلوق، إطاره الزماني والمكاني هو وجود هذا الإنسان ذاته بوصفه مخاطبا. خطاب ترتبط فيه السماء بالأرض، وتحل فيه القيم الربانية في المجتمع الإنساني بكل تفاصيله وفي مختلف وضعياته.

إن حد الخطاب في التراث العربي بشكل عام هو الكلام الموجّه نحو الغير للإفهام(38) فهو موضع تلاق وتفاعل بين الكلام وسياق فهمه والإفهام به، ويجمع الخطاب عند الأصوليين بين العبارة

(النص) والمتكلم والمتلقي في إطار تواصلي تفاعلي(39) فالخطاب عندهم "ما وجه من الكلام نحو الغير لإفادته[...] وإذا قلنا لا يطلق الخطاب في الأزل فهو يطلق بعد ذلك عند وجود المأمور والمنهي، ينبغي أن يقال: إن حصل إسماعه لذلك كما في موسى ﷺ فيسمى خطابا بلا شك. وإلا فلا" (40) ويقول الزركشي: "الخِطَابُ عَرَّفَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ بِأَنَّهُ الْكَلَامُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ إفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِلْفَهْمِ. وَعَرَّفَهُ قَوْمٌ بِأَنَّهُ مَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَنْ قَصَدَ إفْهَامَهُ مُتَهَيِّئًا أَمْ لَا. قِيلَ: وَالْأَوْلَى أَنْ يُفَسَّرَ بِمَدْلُولِ مَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ"(41) ويعرفه الكفوي بأنه: "الْكَلَام الَّذِي يقْصد بِهِ الإفهام، وَلَفظ "الْمُخَاطَب"لم يوضع لمخاطَب يتَوَجَّه إِلَيْهِ الْخطاب بِلَفْظ الْمُخَاطِب، بِخِلَاف "أَنْت" بل هُوَ، وَكَذَا لفظ "الْمُتَكَلّم" موضوعان لمفهومهما لَا لذاتهما فِي الْأَحْكَام"(42) ومن هنا فالخطاب عند القدماء هو نص ومرسِل تتوفر فيه قصدية التأثير في المتلقي، وإذا ما أرجعنا البصر إلى تعريف بنفنست الذي ينص على أن "الخطاب ملفوظ يفترض مرسلا ومتلقيا لدى الأول نية التأثير في الثاني بطريقة ما"(43) لوجدنا إشارة جلية في التراث إلى المفهوم المعاصر الذي عرف به الخطاب "وهو ما يوحي بأنهم تناولوا دراسة النشاط اللغوي تناولا خطابيا يراعون فيه مستوياته الإفادية المتحققة، إلى جانب تعرضهم لمستوياته اللفظية الصورية"(44) بل إن بعض الدراسات أثبتت أن تعامل علمائنا القدامى مع النصوص شاهد على أصالة المناهج الخطابية في المنظومة الفكرية العربية(45) و"أن ما توصلوا إليه من نتائج يشهد لهم بمستوى من الوعي العلمي الدقيق، يضاهي مستوى معاصريهم من أصحاب العلوم العقلية؛ ويؤكد ذلك إمكان صوغ دقائق أحكامهم واستنتاجاتهم صوغا مضبوطا، قد لا يتأتى مثله لبعض تأملات أهل النظر العقلي من معاصريهم"([46])

7. الخاتمة:

يمكننا القول ختاما إن علماءنا كان لديهم تصور واضح للنص وللخطاب رغم الخصوصية الدينية لهما، لتعلق بحوثهم في هذه المسألة بالقرآن الكريم، وأن القرآن الكريم في ممارستهم التحليلية خطاب، وأنه بدوره خطاب خاص، يتميز بكونه متجددا لا يخلَق، مما يشاكل مذهب المعاصرين، باعتبار أن الخطاب يأبى التكرار رغم تكرر الألفاظ، وأن أقل ما يضمن له التجدد هو تغير الزمان، ومن ثمّ فإن القرآن الكريم في التصور التراثي خطاب، لكنه خطاب حيّ، يخاطب مجتمعا متحركا متبدلا، فيؤطر كلياته ويضبط مجال حريته، خطاب سمته الثبات في مرونة، والقيد في حرية. وهو رسالة متجددة للإنس والجن.

أما ما يطابق مفهوم الخطاب أو يقابله في التراث، فقد ورد الخطاب عند القدماء وصفا للفظ، مختلفا عن الكلام من جهة النطق باللسان، متميزا بحضور طرفي الخطاب، باعتبار أن الكلام هو الكلام النفسي وأما اللفظ فهو الكلام الذي يصاحبه نطق باللسان، أما الخطاب فلفظ بين متخاطبين.

وفي جميع الحالات يصدر القدماء عن تصور واضح للخطاب القرآني ولنوع المخاطَب به، عبر إعادة بناءٍ للخطاب تفضي إلى إدراك القصد منه.

لقد رفض بعض المجتهدين إطلاق مصطلح "خطاب" على القرآن الكريم، بحجة أن القدماء لم يسموا القرآن "خطابا" وأنهم لم يسموه إلا بما سمَّاه الله به؛ مثل: القرآن والكتاب والتنزيل والذكر والفرقان والوحي. غير أن في قولهم خلطا بين الاسم والوصف؛ فهذه أسماء للقرآن، بلغت درجة العَلَمية، أما صفته فهي اعتباره نصا أو خطابا أو كلاما أو قولا، ثم إن كثيرا من المصطلحات مستحدثة، أفرزتها البحوث اللغوية الحديثة، وأضحى استعمالها محض ضرورة تفرضها روح العصر ومقتضيات البحث، والمتلقي اليوم لا يمكن أن ينفصل عن سياق تلقيه، بكل ما يتضمنه هذا السياق من علوم ومصطلحات مادام ذلك في حدود الجواز وشرعية الاجتهاد.

وإذا كان القدماء يتصورون القرآن الكريم خطابا فإنهم يعتبرون تفسير هذا الخطاب ضرورة وواجبا، ويعدّ فهمه منجاة، لأنه مرتبط بالعمل وبالتلقي للتنفيذ، وقد تناقل المفسرون قول إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب.

هوامش البحث:

1 - الشاوش محمد، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية ،المؤسسة العربية للتوزيع،كلية الآداب جامعة منوبة، تونس، ط1، 2001، 183/1

2 - نفس المرجع، 197/1

3 - الغزالي أبو حامد، المستصفى من علم الأصول، تحق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص45

4 - الشافعي محمد بن إدريس، الرسالة، تحق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط1، 1940، ص13

5 - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تحق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دط، دت، 42/1 وينظر: التهانوي محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996، 487/2

6 - الجويني أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، تحق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، 193/1

7 - الثعالبي أبو منصور، فقه اللغة وأسرار العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت ص218.

8 - الشاوش محمد، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، كلية الآداب جامعة منوبة، تونس، ط1، 2001، 187/1.

9 - زيادة معن، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، 1986، مج1، ص771.

10 - ينظر في الخطاب لغة: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص243

11 - وقد أرجأ دوسوسير دراسة الكلام لضرورة اقتضتها جدة المنهج وصرامة المرحلة.

12 - Dubois .Jean et autres: Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris, 2ed, 2002, p150.

13 - Maingueneau.D, Initiation aux méthodes d'analyse du discours, Hachette université. Paris, 1986, p12

14 - Dubois..Jean et autres, Op.cit, p150.

15 - Benveniste.Emile, Problèmes de linguistique générale, Cérès Editions, Tunisie, T1, 1995, p241

16- Voir: Charaudeau.P et Maingueneau.D, Dictionnaire d'analyse du discours, éd du Seuil, Paris, 1ed, 2002, p185

17- Voir: Sarfati.Georges-Élia, Eléments d'analyse du discours, Armand Colin, Paris, 2éd, 2007, p99-102

18 - حرب علي، المجموعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، 1986، ص1771.

19 - ينظر: أبو ديب كمال، في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، 1987، ص15.

20 - المتوكل أحمد، الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص9.

21 - ينظر: بلخير عمر، مقالات في التداولية والخطاب، دار الأمل، الجزائر، دط، دت، ص12-29

22 - صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداوليَّة لظاهرة "الأفعال الكلاميَّة"في التّراث اللساني العربي، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص16-17

23 - براون جوليان ويول جورج، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود للنشر العلمي، المملكة العربية السعودية ، 1997، ص ك.

24 -Voir: Charaudeau.P et Maingueneau.D, Dictionnaire d'analyse du discours, éd du Seuil, Paris, 1éd, 2002, p185-190

25 - Charaudeau.P et Maingueneau.D, Op.cit, P201-202.

26 - دايك فان، علم النصّ، مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن بحيري، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص128.

27 - ابن عطية عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحق: عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية، ط2، 2008، 123/1

28 - الماتريدي أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2005، 246/4

29 - الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ، 85/5

30 - المغامسي، صالح بن عوّاد بن صالح، سلسلة محاسن التأويل، http://www.islamweb.net

31 - ابن عطية، المحرر الوجيز، 209/3

32 - ابن المظفر أحمد بن محمد، مباحث التفسير، تحق: حاتم بن عابد بن عبد الله القرشي، دار كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، ط1، 2009، ص283

33 - Voir: Maingueneau.D, Analyser les textes de communication, NATHAN, Paris, 2éd, 2002, p88

34 - الطبري محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحق: محمود محمد شاكر، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، د.ط، د.ت، 287/1-288

35 - الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، تحق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1988، 459/1

36 - البغوي الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420 هـ، 190/2

37 - ابن عطية، المحرر الوجيز، 551/2، الأنفال 67 - 68

38 - التهانوي محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996، 749/1.

39 - ينظر: السبكي تقي الدين وولده السبكي تاج الدين، الإبهاج في شرح المنهاج (منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي)، تحق: محمود أمين السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 1995، 43/1-44

40 - ابن عطية، المحرر الوجيز، 43/1

41 - بدر الدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتبي، مصر، ط1، 1994، 168/1

42 - أبو البقاء الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحق، عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1998، ص419.

43 - Benveniste.E, Problèmes de linguistique générale, Cérès Editions, Tunisie, T1, 1995, p241

44 - دبة الطيب، تحليل الخطاب وأزمة المعنى عند الأصوليين، مجلة الخطاب، مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ع8، أفريل 2011، ع8، ص15

45 - ينظر: صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، ص49، ومسعود صحراوي، تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، مجلة الخطاب، مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ع8، ص47

46 - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2000، ص151